جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

فضاء الوطن في عتبات قصص الطيب صالح (دومة " ود "حامد نموذجا)

إعداد

د. نهلة عبدالرحمن أحمد سليمان
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والفنون - جامعة حائل

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠أكتوبر)
(الجزء الثاني (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

فضاء الوطن في عتبات قصص الطيب صالح

(دومة " ود "حامد نموذجا)

نهلة عبدالرحمن أحمد سليمان

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والفنون، جامعة حائل، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني:nahlatsulayman@yahoo.com

الملخص:

تهدف الدراسة إلى دراسة العتبات في السرد القصصي وربطه بالفضاء الذي له أثر في بنية القصة والرواية وتحليلها السردي، وبيان آلياته وعلاقاته بعناصر السرد الأخرى وهو ما يمنح القصة واقعية تجعل منها حدثا واقعيا ذا قيمة اجتماعية . وفي قصص الأديب الطيب صالح نلحظ جليا التركيز على الأمكنة التي تبث روح الحياة على القصة بأكملها وتوضح طابعها الجغرافي الانتمائي وتحمل كذلك عناوين ذات دلالات مكانية مثل رواية موسم الهجرة إلى الشمال ودومة ود حامد وغيرها . أفادت الدراسة من معطيات المنهج الوصفي التحليلي لما وجدته في هذا المنهج من آليات استطاعت من خلالها الكشف عن أثر المكان (الوطن) في عناوين القصص المختارة على تشكلات العناصر المختلفة لها،جاءت الدراسة في تمهيد وثلاثة مباحث كل مبحث يمثل قصة من القصص الثلاث المختارة لإبراز هدف الدراسة وذلك من خلال تجليات عناوينها وبعضا من مشاهد القصة. توصلت الدراسة لعدة نتائج أبرزها أن معظم عناوين قصص الأديب لها أبعاد نفسية واجتماعية أصيلة تنبع من عمق الانتماء المكاني والبيئي والذي ظهر من خلال رؤية المبدع .

الكلمات المفتاحية: الطيب صالح، دومة ود حامد، دلالة العنوان، عناصر السرد.

The space of the homeland in the thresholds of Tayeb Salih's stories (Duma "Wad" Hamid as an example).

Nahla Abdel Rahman Ahmed Suleiman.
Department of Arabic Language, College of Arts and Arts, University of Hail, Kingdom of Saudi Arabia.

E-mail: nahlatsulayman@yahoo.com

Abstract:

The study aims to study the title in the story and link it to the place that has an impact on the structure of the story and the novel and its narrative analysis, and to show its mechanisms and its relationship to other elements of the narrative, which gives the story a realism that makes it a possible event with a social value associated with it. In the stories of the writer Tayeb Salih, we clearly notice the focus on the places that breathe life into the entire story and clarify its geographic and belonging character. The study benefited from the data of the analytical descriptive approach, as it found in this approach the mechanisms through which it was able to reveal the impact of the place (the homeland) in the titles of the selected stories on the formation of its various elements. The study came in an introduction and three sections, each section representing one of the three selected stories to highlight the purpose of the study, through the manifestations of its titles and some of the scenes of the story. The study reached several results, most notably that most of the titles of the writer's stories have authentic psychological and social dimensions that stem from the depth of spatial and environmental affiliation, whicappeared through the creator's vision.

Keywords: ***Tayeb Salih, Douma Wad Hamed, Significance Of The Title, Narrative Elements.***

مقدمـــة

يتناول هذا البحث تحليل العنوان في المجموعة القصصية (دومة ود حامد) والذي يعد من أهم عناصر النص الموازي الذي يجعل من النص كتابا يقترح نفسه على القراء والجمهور؛ بوصفه المدخل الرئيس في قراءة الإبداع الأدبي عامة ، والروائي بصفة خاصة. (لقد أخذ العنوان يتمرد على إهماله فترات طويلة، وينهض ثانية من رماده الذي حجبه عن فاعليته، وأقصاه إلى ليل من النسيان. ولم يلتفت إلى وظيفة العنوان إلا مؤخرا) [١]، ومن المعلوم كذلك أن العنوان هو العتبة الأولى لتحليل النص وبدايته . وهو العلامة التي تطبع النص بطابعه الخاص وتميزه عن غيره. وهو كذلك من العناصر المحيطة بالنص والمفسرة له مثله مثل الحواشي والهوامش والمقدمات والمقتبسات (هذا وقد نادى لوسيان ولدمان الدارسين والباحثين الغربيين إلى الاهتمام بالعتبات بصفة عامة، والعنوان بصفة خاصة. وأكد في قراءته السوسيولوجية للرواية الفرنسية الجديدة مدى قلة النقاد" الذين تعرضوا إلى مسألة بسيطة مثل العنوان في رواية الروائي Le Voyeur الذي يشير . مع ذلك بوضوح . إلى مضمون الكتاب، ليتفحصوه بما يستحق من عناية)[٢]، وعندما يرمز العنوان إلى مكان ما فلابد أن للمكان دورًا بالغ الأهمية في أحداث القصة وتوضيح معالمها منذ البداية، وهو ما جعل الكثير من الكتاب يلجأون إلى هذه الحيلة في تسمية عناوين أعمالهم، فقد تحتوي قصتك على حدث معين يرتبط بالمكان تنطلق من عنده الأحداث أو آخر يلعب دورًا مؤثرًا في الحبكة الروائية وختام القصة، لذا ووفقًا لذلك،

---

(١) علي جعفر العلاق، (شعرية الرواية)، علامات في النقد، المجلد ٦، الجزء٢٣، السنة ١٩٩٧، ص١٠٠-١٠١.

(٢) لوسيان ؟ ولدمان وآخرون، الرواية والواقع، ترجمة: رشيد بنحدو، عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨، ص ١٢.

عمد بعضهم إلى التلميح والإشارة إلى هذا المكان من خلال العنوان. كما لجأ كثير من الكتاب كذلك إلى اقتباس العناوين من النصوص المقدسة أو الأقوال المحلية، مثل رواية الأديب الطيب صالح "عرس الزين" المقتبس عنوانها من اعتقادهم بالرجل المبارك (الزين)، أو أن تجعل عنوان روايتك "دومة ود حامد" تيمنا بالمكان المقدس لأهل المنطقة والذي دفن فيه جدهم الصالح (حامد) ، وقد يختار الكاتب اسم القصة أو الرواية من اسم البطل، فبطل روايات الطيب صالح في أكثر قصصه هو المكان، فالعنوان هنا يرمز بالتأكيد لأصالة المكان وقدسيته في نفس الكاتب وهو "شمال السودان " "موطن الأديب" فقد ولد الأديب الطيب صالح الذي عرف بعبقري الرواية العربية في قرية (كرمكول) في إقليم مروي في شمال السودان (١٩٢٩-٢٠٠٩) وعاش طفولته هناك ثم انتقل إلى بريطانيا وهضم الثقافة الغربية وامتاز بمعارفه الواسعة والعميقة من خلال الثقافات الغربية التي أتيح له الاطلاع عليها والتفاعل معها والإفادة منها من خلال التواصل المباشر، وعلى الرغم من ذلك يظل المكان" الوطن الأم "محفورا في داخله يشهد على ذلك الكثير من المؤلفات التي تثبت أصالة فنه وموهبته الفذة . فما ما أن ض بعض عناوين قصصه ورواياته إلا وأخذتك إلى تلك البلاد بكل طقوسها وعاداتها وقيمها المتأصلة في نفوس ساكنيها على مر الزمان (لقد أخذ الاهتمام بالمكان يكتسب طابعه العلمي، حين غدا امتدادا للجسد عند المفكرين الاجتماعيين و النفسانيين على حد سواء. فقد:»قارن عالم الاجتماع "أ.ت.هل" هذا الحيز بالفقاعة التي يعيش الفرد بداخلها، ويحملها أينما ذهب)[١]، (وهو فضاء تتعدد وظائفه ومعانيه بالنسبة لصاحبه وللآخرين. وكل اعتداء على جزء منه قد يولد ثورة واحتجاجا. وقد يكون في صورة أخرى دلالة على التقرب و المحبة. وهي معان لا تنشأ من "المكان" أصالة بقدر ما تنشأ عن الظواهر

(١) سيزا قاسم، جماليات المكان، منشورات عيون المقالات، المغرب، ص٦.

المصاحبة لـه. وقد تكشف الدراسات عن معان أخرى يمتلكها المكان الجغرافي، كإكساب "القيم" الاجتماعية نعوتا مكانية للدلالة على سموها ومكانتها و جدارتها. ف" الشريف" و" الوضيع" و" العالي" و" الدني" و" المنيع" و" الصغير" و" الكبير" أوصاف يجسدها البصري، ويحدّ حدودها شكلا ومضمونا. ولجلالها آثر الإنسان- في لحظة من تاريخه- استعارة معانيها لقيمه الاجتماعية. ذلك أن : »إضفاء صفات مكانية على الأفكار المجردة، يساعد على تجسيدها. وتستخدم التعبيرات المكانية بالتبادل مع المجرد مما يقربه إلى الأفهام. وينطبق هذا التجسيد المكاني على العديد من المنظومات الاجتماعية، والدينية، والسياسية، والأخلاقية، والزمنية. بل إن هذا التبادل بين الصور الذهنية والمكانية امتدّ إلى اتصاف معان أخلاقية بالإحداثيات المكانية النابعة من حضارة المجتمع وثقافته، فلا يستوي "أهل اليمن" و" أهل الشمال". كما يتدرج السلم الاجتماعي من "فوق" إلى "تحت" [١].

(دومة ود حامد) هي إحدى المجموعات القصصية للأديب الطيب صالح بعنوان (دومة ود حامد) وهي عبارة عن سبع قصص قصيرة هي: نخلة على الجدول – وحفنة من تمر –ورسالة إلى إيلين – دومة ود حامد – وإذا جاءت – وهكذا يا سادتي – مقدمات . ودومة ود حامد إحدى تلك القصص السبع تتحدث عن قرية صغيرة يؤمن أهلها بالرجل الصالح المدفون بتلك القرية ، و المدفون تحت تلك الدومة (شجرة ثمار الدوم) ، تداعيات المكان تنبئ بدلالات اجتماعية كثيرة وعميقة لتلك القرى النائية أراد الأديب تسليط الضوء عليها.

(١) سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص٧٥.

مشكلة البحث:

تكمن في معرفة سبب تسليط الأديب معظم عناوين قصصه إلى الريف السوداني وملحقاته وعكس البيئة المحلية بكل إيجابياتها وسلبياتها وخصوصية الأمكنة عنده وما تحمله من دلالات نفسية عميقة . كما تكمن أهميته في معرفة العمق المكاني للقصة والرواية السودانية كما أرادها صاحبها . تظهر صعوبة البحث في التناول الغزير لروايات الطيب صالح كون الرجل من الأدباء العالميين والذين شغلوا الرأي العام كثيرا بتسليط الضوء على رواياته خاصة التي نالت جوائز عالمية مثل رواية موسم الهجرة إلى الشمال . إلا أنني تشجعت في الكتابة عن دومة ود حامد لما لمحته من ملامسة اجتماعية وانتماء مكاني لصيق بالنفس تكشفه بعض عناوين قصصه وهي ذات أبعاد ثقافية عميقة ومتأصلة في الشعب السوداني ، إذ لكل شعب انتماؤه الخاص وتجربته الشعورية الخاصة ولما فيها من تبادل ثقافي يجب تسليط الضوء عليه .

تقف حدود الدراسة عند عناوين ثلاث من القصص من بين السبع وهي بالترتيب كما جاءت في المجموعة : نخلة على الجدول – حفنة من تمر – دومة ود حامد، وتتناولها بالتحليل الممكن للتوصل إلى مقاصد الدراسة .

الدراسات السابقة:

لم تكن هذه الدراسة هي الوحيدة حول قصة " دومة ود حامد للطيب صالح"؛ حيث كانت هناك دراسات متعددة تناولت أعمال الطيب صالح بشكل عام، أما الدراسات التي تناولت قصة " دومة ود حامد" فقد جاء بعضها مقتصرا على الشخصيات وأنواعها، وبعضها الآخر قام بدراسة سمات معينة للقصة، ولكن لم يتناول أحد من الباحثين دراسة العتبات ودلالاتها وعلاقتها بعناصر السرد، ومن هذه الدراسات:

– بناء الشخصيات في قصة " دومة ود حامد للطيب صالح"، علي طرش، مجلة الآداب واللغات بكلية الآداب جامعة البليدة بالجزائر، المجلد ٢٠١٦، العدد،١٥ ٣١ ديسمبر، سنة ٢٠١٦م.

– دراسة بعنوان: بعض خصائص الخطاب الإحالي في قصة دومة ود حامد للطيب صالح، شيخة عبدالمنعم، مجلة الخطاب، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر، العدد ١٠، يناير ٢٠١٢م.

وقد طمحت الدراسة إلى :

– معرفة دلالة العنوان في قصص الأديب الطيب صالح ووجوده في القصة وهل كان ملازما لها منذ الوهلة الأولى أمض مكون له دلالات داخل الحدث الانفعالي؟

– تقديم الرؤية التي تصدر عن الراوي من خلال الوصول لعمق العنوان ومايتبعه من أحداث .

–ماهي الآلية التي أطر بها العنوان داخل القصة ؟ مع ربط ذلك كله بالمشاهد التي تزيد من فرضية الدراسة

–البحث عن الوطن داخل العنوان بوصفه وطن الأديب التي فشل في الانعتاق من تبعاته في معظم قصصه رغم محاولاته في الوقوف و المقارنة بين الحديث والقديم، والحضارة والبداوة، والشرق والغرب.

لذلك جاء اختيار عنوان الدراسة فضاء الوطن في عتبات قصص الطيب صالح (دومة "ود " حامد نموذجا)

اقتضت ضرورة البحث تقسيمه إلى تمهيد وثلاثة مباحث يحمل كل مبحث عنوان القصة المختارة وعرضا لبعض مشاهدها التي تحمل دلائل العنوان وما به من رؤى جمالية أرادها الكاتب ليعكس من خلالها انتماءه الأصيل لتلك الأماكن بوصفها الوطن الأصلي الذي لم تستطع الحضارة الغربية بكل مغرياتها انتزاعه من نفسه.

تمهيـــد

إن تـأثير المكـان علـى حيـاة المبـدعين قديم ومتجذر فـي الأدب العربـي قديما وحديثا وظاهرة الوقوف على الطلل في الشعر الجاهلي من أبرز التجارب الإنسانية التي كشفت وجود صلة قوية بين المبدع والمكان ومنذ ذلك الوقت بقي المبدع متعلقا بالمكان الذي يكتب فيه وعنه، فتميز كل مبدع بطريقة توظيفه للمكان، فمنهم من جعل الحافلة موقعا لإظهار أحداثه وآخرون اتخذوا الشارع مكانا لإبراز انفعالاتهم، وكان للأديب الطيب صالح رؤ يته الخاصة للمكان حيث اهتم بالمكان الداخلي (الوطن) كما انه لم يهمل المكان الخارجي (الغربة) وجعل من القرية المساحة الواسعة في خريطة قصصه، كما أنه اكتفى في الكثير من الأحيان بوضع الملامح العامة لها، ودفع القارئ إلى كشف خصوصيات المكان بنفسه، فكانت القرية المكان الذي يكتب عليه باستمرار، والمسرح الذي تتحرك فوقه الشخصيات، التي تكررت في المكان والزمان نفسه، كما حدث في رواياته الأخيرة (ضو البيت، بندر شاه، مريود) و لأن الطيب صالح كان ذا انتماء عميق للسودان جعل من شمال السودان المادة التي يختار منها نماذجه الإنسانية، ونظر للقرية في السودان نظرة إيجابية وأخرى سلبية، إيجابية تمثلت في تمسك القروي بأرضه والدفاع عنها بأنفس ما يملك ، سلبية لأنها تكشف لنا عن مجمل العقليات المتحجرة لأهل القرية وتخوفهم من عنصر التجديد)[1].

وفي كل هذا يمكن أن ننطلق من العنوان إلى النص، ومن النص إلى العنوان عبر مراعاة السياقين: الداخلي والخارجي، ومن خلال القراءة المباشرة وغير المباشرة

(١) مدفن، أم كلثوم، دلالة المكان في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة الأثر، مجلة الآداب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد الرابع، مايو ٢٠٠٥، ص ١٤٤.

مراعين مبدأ التأويل المحلي ومقاصد النص وأهداف المبدع و على القارئ أن يبحث عن العلاقة بين العنوان والنص وأن يبحث عن المرامي والمقاصد والعلاقات الرمزية والإيحائية ، ففي قصص وروايات الطيب صالح نجده قد ركز على المكان في رواياته تركيزا قويا ابتدأه من اختياره للعناوين بطريقة تستوقف الباحثين للنظر إليها بشيء من إمعان النظر، ففي غالبيتها عناوين إما أنها تشير إلى المكان أو إلى متعلقات المكان بما فيه من عادات وتقاليد وقيم شكلت إنسان تلك المناطق حتى وهم بعيدون عنها في بلاد مليئة بالمغريات ومختلفة كامل الاختلاف عن تلك الأماكن، وقد اعتمد نمط العنونة الكلاسيكية أو التقليدية التي كانت مرآة تشخيصية للذات أو الواقع أو المرجع التاريخي، وإذا انتقلنا إلى مرحلة الجهود الروائية الأولى، سنجد هيمنة العنونة التراثية رغبة في ربط الحاضر بالماضي الحضاري لاسيما في مرحلة القرن التاسع عشر لذا كانت الهيمنة لأنماط عنوانية ثلاثة:(١)

- العنونة الفضائية التي تشخص المكان وتجسد الواقع الموضوعي والفضاء بكل عوالمه الأصيلة والموبوءة (روايات نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي الواقعية).

- العنونة التجريدية التي تشخص الذات والقيم المثالية والحب الطوباوي كما هو الشأن في الرواية الرومانسية (الأجنحة المتكسرة لجبران، رواية زينب لهيكل، روايات يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس وعبد الحليم عبد الله والمنفلوطي والسير الذاتية...الخ).

- العنونة الوثائقية في الروايات الإخبارية والتاريخية والوطنية والقومية (روايات جورجي زيدان ونجيب محفوظ في مرحلته الأولى (كفاح طيبة . رادوبيس).

---

(١) جميل حمداوي، مقاربة العنوان في النص الأدبي، مجلة الكلمة (مجلة إلكترونية)، العدد ٢ فبراير، ٢٠٠٧ ، دراسات جميل حمداوي.

وسأحاول أن أسلط الضوء على وجود العنوان داخل النص وما يعنيه الأديب عند ذكره له وعكس مشاعر الكاتب في ذات الموقع الذي ذكر فيه مع محاولة أيضا للغوص في أسبار النفس الإنسانية وما يعنيه المكان (الوطن) لها، بل وما تعنيه التفاصيل الدقيقة التي اهتم بها الكاتب ليبين للقارئ مدى تعلقه بتلك التفاصيل المكانية والوقائع التي جرت عليها .

المبحث الأول:

قصة "نخلة على الجدول":

قصة نخلة على الجدول تُعدّ أوّل ما كتبه الروائي العبقري الطيب صالح – رحمه الله– فكانت القصة حديثة عهد بفكر صاحبها، تحمل معها الريف السوداني النقيّ الطيّب بكلّ ما فيه من جمال وبساطة، وكانت شخصيّات القصّة كذلك بسيطة تعبر عن الرجل السوداني الذي يختبئ بين ضلوع الطيب صالح.

شكلت عناصر القصة الأخرى بيئة متكاملة من حيث المكان الذي هو قرية صغيرة من قرى شمال السودان؛ صوّر فيها الكاتب أحواض الذرة وغابة النخيل والجرود ونخلة الشيخ محجوب بالإضافة لبعض الحيوانات التي يتمّ بها المشهد الريفي العذب، وأمّا الزمان فهو في اليوم السابق ليوم عيد الأضحى المبارك

ما أن تقع عيناك على العنوان إلا ويذهب بك بعيدا لأرض الشمال موطن النخيل الأول في السودان، فالنخلة هنا رمز لشمال السودان حيث نشأ وترعرع الأديب الطيب صالح فقد ظل المكان حاضرا في معظم عناوين قصصه ورواياته متأصلا وأصيلا حيث قدسية النخلة هناك من قدسية الوجود والناس والحياة بأكملها، لم يكتف الطيب صالح بالإشارة للمكان بالعنوان فقط يل أسهب في وصف الحقول بزروعها ونخيلها وصفا دقيقا، وصف خبير عارف بالمنطقة وأهلها، وصف غاباتها وحقول الذرة التي تلف تلك الغابات، الجرداء منها والتي لم تجف بعد، تتراقص في وسطها تلك النخلة (صاحبة العنوان) وبطلة القصة إن جاز التعبير، والطقوس التي تتم زراعتها بها حين ألقى البطل بعض كلمات الخشوع (بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله) تلك الطقوس التي اعتادها السابقون من قبله عند زراعة النخل أو عند

الحصاد[1]، النخلة عنوان القصة هي ليست مجرد نخلة زرعت وغرست بل هي رمز للبركة وهي موسومة بطابع إنساني خاص ولها حضور لافت في حياة صاحبها (محجوب) الشخصية المحورية في القصة كما أوحت أحداث القصة وله معها ذكريات سعيدة، فبعد ستة أشهر من زرعها تزوج غارسها (البطل شيخ محجوب) رغم أنه لم يكن يمتلك المال الذي يؤهله للزواج وقد عاش قبلها منبوذا مجفوا من الحسان كما ذكر الراوي ومتهما بالغباء والخيبة، كل ذلك تحول بعد غرسه للنخلة فتزوج وأصبح ثريا وصار يلقب بالظريف بعد أن عرف بالغباء وهذا ما يؤكد بعدا آخرا من الحياة الاجتماعية لأهل المنطقة ركز عليها الأديب كثيرا في قصصه ورواياته وهي الإيمان بالمعتقدات الروحية للناس وللأشياء كما في روايته (عرس الزين) ذلك الدرويش المتبرك به في الزواج والذي كلما رأي فتاة وأعجب بها طرق الخطاب بابها، تأكيده لهذه الظاهرة وتسليطه الضوء عليها ليس الغرض منها عكس الجوانب السلبية لإنسان المنطقة فقط ، بل تعريفه للعالم بأن إنسان منطقته رضي العالم أم أبى رافض للتغيير معتد بجذوره ومؤمن بكل معتقداته وآرائه وقد أضحت جزءا لا يتجزأ من ثقافة المكان ومعلما من معالمه. في ختام القصة أراد الأديب أن يؤكد تمسك إنسان المنطقة بهذه البركة والتي جعل النخلة رمزا لها فبعد أن ساءت حالة البطل وافتقر وعرض البائع عليه عشرين جنيها مقابل بيعه للنخلة أكد بما لا يدع مجالا للشك بأن النخلة قادرة على جعله ثريا كما فعلت من قبل فبعد أن فكر مليا قال :(أنا تمرتي ما ببيعا) فإنسان الشمال يطلق مجازا لفظ التمرة على شجرة النخيل باعتبار أن التمرة هي الثمار الذي لا يكون للنخلة قيمة من دونها؛ وبالفعل فقد حُلت المشكلة عندما أرسل الابن الغائب حسن ثلاثين جنيها وطردا من الملابس كانت كفيلة بحل مشكلات

---

(١) الطيب صالح، (دومة ود حامد) " سبع قصص"، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١ ، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م، نخلة على الجدول بتصرف.

شيخ محجوب، وبذلك فقد تأكدت بركة النخلة وزادت ثقة الشيخ بتلك النخلة (البركة) وكان هذا التأكيد هو نهاية القصة وكان العنوان ماثلا ومتمثلا للمكان والبيئة والناس وإن تساءلنا لماذا اختار الطيب صالح هذه العبارة تحديدا وكتبها بالعامية رغم كتابته بالفصحى في هذه القصة، نجد أن الإجابة تكمن في عكس اللغة البسيطة السهلة لإنسان المنطقة فاختياره لم يأت أدبيا بقدر ماهو عكس للجزء العزيز من عطر أحبابه و رائحة بلاده " بلاد التمر".

كشفت القصة عن رؤية الكاتب وإمكاناته التقنية ورؤاه التي تمتلك وعيا عميقا بالعالم بعرضه بعض الثنائيات الحاضرة بقوة في قصصه السبع وخاصة الثلاث قصص المختارة موضوع البحث فثنائية (الحداثة والموروث) و(التقدم والتخلف) لونت قصصه برؤية ثاقبة حددت معالم العمل الأدبي كما ظهرت أيضا معالم السرد القصصي بقوة من حيث التكثيف والحوار الذي اعتمد فيه على اللغة الفصحى رغم بداوة المنطقة وأهلها محور القصة ومسرح أحداثها .

مشهد أول:

(يفتح الله !)

(عشرون جنيها يارجل، تحل منها ما عليك من دين وتصلح بها حالك، وغدا العيد، وأنت لم تشتر بعد كبش الأضحيةّ ! وأقسم أنني أريد مساعدتك، فإن هذه النخلة لا تساوي عشرة جنيهات)[١]، هذه أول فقرة في القصة بدأت بمساومة بين البائع (محجوب) الفقير الذي أغناه الله بعد زرعه للنخلة وبين مشتر أراد مساومته على بيع النخلة عارضا عليه مبلغا يحل مشاكله بعد أن ساءت به الحال وافتقر ودخل في أزمة مالية بعد الجفاف الذي أصاب القرية، خاصة وأن عيد الأضحية على الأبواب ،

(١) (دومة ودحامد)، قصة نخلة على الجدول، ص٧.

لكن الحياة تغيرت في اللحظات الأخيرة قبل بيع النخلة بقدوم ابن الشيخ محجوب . هذا المشهد والذي بدأ بكلمة (يفتح الله!) يعود للعنوان في عدة أمور: الأمر الأول هو تمسك الشيخ (محجوب) بالنخلة رغم افتقاره في دليل واضح على أن النخلة "العنوان" هي تمسك الراوي بوطنه ومعتقداته(إن فهم الصورة العنوانية وتفسيرها وتذوق جمالها وصيغ أساليبها مرتبط بمعانيها" ضمن" خطاطة المجموع"، أي السياق الكلي للرواية)[1]، إذن فالعنوان هنا بين مدى أهميته في استخلاص البنية الدلالية للنص السردي ووضح جليا مكانة النخلة بوصفها المدخل والمسار الذي سارت عليه الأحداث منذ البداية إلى نهاية القصة، وربما يتضح هذا في مشاهد أخرى من القصة.

مشهد ثان:

وهو بالفعل الفقرة الثانية في القصة، إذ لايزال الراوي يصر على أن يجعل من النخلة محورا للقصة منذ بدايتها تأكيدا لمكانتها التي هي من مكانة الوطن في داخله (تململ حمار حسين التاجر في وقفته، ولم يكن صاحبه قد ترجل عنه، فإنه لم يرد أن يظهر للشيخ محجوب تلهفه على شراء النخلة ذات البنات الخمس ...والتي قامت وسطها النخلة الأم ممشوقة متغطرسة، تتمايل بغدائرها النسمات الباردة التي هبت من الشمال تحمل قطرات من مياه النيل)[2]، لم يكن ذلك الوصف للنخلة هو مجرد وصف لنخلة تميزت بجمالها كالمرأة المعتدة بجمالها بل وتعرفه جيدا، إنما هو وصف لمكانة تلك النخلة وتأكيدا لقيمتها عند ذلك الرجل، هي النخلة المرأة والنخلة الوطن، طهره هواها ثم عمده محبا عاشقا للحسن لأنها المرأة الانتماء والمرأة الوطن،

(١) موسى اغربي، مقالات نقدية في الرواية العربية، دار النشر الجسور، وجدة، ط ١، ١٩٩٧، د. محمد أنقار، ص٣٥.

(٢) القصة، ص ٧.

فالعنوان هنا حاضر في كل عناصر النص يوضح معالم الشعور بكل شفافية ووضوح (إن العنوان كما كتب كلود دوشيه Claude Duchet"عنصر من النص الكلي الذي يستبقه ويستذكره في آن، بما أنه حاضر في البدء، وخلال السرد الذي يدشنه، يعمل كأداة وصل وتعديل للقراءة)[١]، وتواجد النخلة في كل فقرة وكل مشهد من مشاهد القصة ماهو إلا لوجودها في الشعور الكامن لدى الراوي بالانتماء للوطن الأم (إن العنوان في الحقيقة "مرآة مصغرة لكل ذلك النسيج النصي)[٢].

مشهد أخير:

ولما كان المشهد الأول في صفحات القصة هو نهايتها بما يسمى بالحبكة المقلوبة أو المركبة فقد اختارت الباحثة مشهدا من متن القصة يؤكد فيه الراوي انتماءه للنخلة انتماء ايمانيا بوصفها النخلة المباركة التي حققت الثراء وهو انتماء عقائدي ليس الغرض منه إظهار ما يؤمن به إنسان تلك المنطقة بالبركة والتبرك بالأشياء لكن هو انتماء من نوع آخر انتماء لا يؤمن إلا بمعتقداته حتى لو خالفها الصواب لكنه الوطن الذي ارتضاه بسلبياته قبل إيجابياته والذي رمز له بالنخلة التي كانت سببا في الثراء ولن يبيعها حتى لو اضطرته الظروف فليس منا من يبيع وطنه بأغلى الأثمان (غير أنه تزوج ولبس حريرة العرس، وتمسح (بالدلكة)[٣]، ووضع

---

(١) كلود دوشيه، (عناصر علم العنونة الروائي)، أدب، فرنسا، عدد١٢، كانون الأول، ١٩٧٣، ص٥٢-٥٣ .

(٢) د. شعيب حليفي، (النص الموازي للرواية: إستراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، العدد ٤٦، السنة،١٩٩٢، ص٨٤-٨٥.

(٣) الدلكة السودانية هي عبارة عن عجينة يتم استعمالها للعروس، تتكون من عجينة ممزوجة بالعطور المختلفة تعطي للجسم رائحة عطرة تدوم لأيام.

على رأسه (الضريرة)[١]، وأحاطت به الصبايا يهزجن بالأغاني، ولكم شعر بالعظمة والكبرياء وقتها. كل ذلك بعد أن غرس النخلة بستة أشهر)[٢]، ويمكننا القول بأن العنوان قد اختزل في تلك النخلة كثيرا من المعاني الكامنة في نفس الراوي يمكن أن نفك رموزها وإيحاءاتها المختلفة بما يتماشى مع ما تحمله القصة من تلك الإشارات الواضحة (انطلاقا من كل هذا قد يكون بالإمكان تتبع عمل العنوان في النص والشروع في نمذجة تصنيفية Typologie للعناوين وفقا لعلاقاتها بالشرح الروائي بالذات عن طريق الاختزال إلى الحد الأقصى، فإما أن الرواية تعبر عن عنوانها "تشبعه وتفك رموزه وتمحوه، وإما أنها تعيد إدماجه في جماع النص وتبلبل السنن الدعائي عن طريق التشديد على الوظيفة الشعرية الكامنة للعنوان، محولة المعلومة والعلامة إلى قيمة والخبر إلى إيحاء)[٣]، كيف يبيع النخلة الانتماء وكيف يبيع نفسه التي تعلقت بها وجعلت منها مصدرا للخير والسعادة والتغيير من حال إلى حال، إن بيع النخلة هو بيع النفس وبيع القيمة الإيمانية بل وبيع الوطن بأكمله، ومع أن الأديب قد اختار اللغة الفصحى في سرده لكنه بدا متمكّنًا من اللغة قابضًا عليها عالمًا بكنهها وقد أحسن توظيفها على نحو بديع؛ فعندما يتحدّث الراوي البليغ العالم بمجريات الأحداث فإنّ اللغة تصعد معه عاليًا إلى العربية الفصحى العالية، فيُظهر الطيب صالح من خلالها مقدرته اللغوية العالية في اللغة والسرد، ولكنّه يراعي الشخصيات وعندما يتحدّث كلّ واحد منهم بلسانه فإنّه يختار له لغة تناسبه.

---

(١) (الضريرة)عطر مسحوق من الصَّندل والمحلب والقرنفل، يُقلَّد العريس خيطًا من حرير ويُذرُ على رأسه هذا النوع من العطر.

(٢) القصة، ص ١١.

(٣) دليله مرسلي وأخريات، مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص، دار الحداثة ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥، ص٤٣-٤٤.

المبحث الثاني:

قصة "حفنة من تمر":

لايزال الشمال حاضرا في عناوين قصص الأديب الطيب صالح فالتمر (ثمار النخلة) هو أيضا رمز لشمال السودان المعروف بجودة التمر، فقد هام الطيب صالح بالنخل في كل حياته، وحكاياته، كرمز للشموخ، والعزة، والرسالة والوطن، بدأ الكاتب القصة أيضا بوصف المكان وصفا دقيقا ووصف حياته التي عاشها في كنف تلك البقعة المتأصلة جذورها في نفس الكاتب فوصف رحلته للمسجد مع جده لحفظ القرآن ووصف الشاطئ وضفة النهر والسباحة على تلك الضفاف التي طالما جلس فيها متأملا غابة الطلح التي يختبئ النهر وراءها ويسبح بخياله فيتصور قبيلة من العمالقة يحرسون تلك الغابة .

أوحي العنوان بأن هنالك ثمة ارتباط بالمكان من حيث وجود النخل والتمر وذلك الصبي الملازم لجده والذي كان يضع ذلك الجد في مكانة عالية لكنه تفاجأ بأن الجد ليس كما يراه وذلك بعد عدة مواقف ستكشف عنها أحداث القصة لاحقا، ولكن ما علاقة التمر وما علاقة المكان وكيف أوحي العنوان بتلك المراجعة وتلك القصة؟ الحقيقة تكمن في جانب إنساني عندما اعترف الجد بأنه اشترى ثلثي أرض جاره (مسعود) وأن مسعود سيبيعه الثلث المتبقي لتراكم الديون عليه ولتفريط مسعود في أرضه بسبب النساء فمسعود رجل مزواج، حينها شعر الغلام بالعطف على جاره مسعود وهذا العطف ظهر جليا في وصفه لحصاد مسعود لأرضه ورؤيته للعامل وهو يقطع (السبيط) فيناديه مسعود قائلا: حاذر ألا تقطع قلب النخلة، ثم يلتفت للصبي قائلا: (النخل يا بني كالآدميين يفرح ويتألم) هنا أحس الصبي بمدى ارتباط جاره بتلك التمور والنخلات وبالأرض عموما، وكيف أن جده يريد أن يبيعه إياها؛ ربما أحس الصبي بالخيانة فعندما أعطاه جاره (حفنة من تمر) عرف بعدها أن التمر قد

ذهب للدائنين أدخل أصبعه في حلقه وتقيأ التمر، تلك الشخصية القصصية في نهاية القصة تنزع منزعا إنسانيا يؤكد معرفة الصبي بقدسية الأرض والنخل خاصة وبقيمة ما انتزعه ذلك الجد من جاره مسعود بل ومعرفة أن ليس من حقه ابتلاع حفنة التمر التي لوثت بخيانة الجار والأرض والانتماء والوطن.

(حفنة من تمر) عنوان ينبئ عن تلك البساطة لإنسان المنطقة ولذلك المجتمع الذي يري في المكان وفي النخل عزته وكرامته وانتماءه وقد كان للعنوان هنا أهمية كبيرة في بيان ما تكتنفه القصة من قدسية ما يحمله العنوان وتنبئ عنه أحداث القصة (فإن العنوان ذو أهمية خاصة بالنسبة للمؤلف والمتلقي على السواء؛ لأنه جماع النص وملخصه)[1].

إغراق الأديب في سرد التفاصيل الدقيقة في وصفه للأماكن وسبل العيش فيها ليس إلا لأنها جزء لا يتجزأ من ذاته الكامنة التي لم تنسفها ثقافة الغرب التي عاشها الأديب وهضمها واستوعبها وأغرق أيضا في تفاصيلها الدقيقة.

مشهد أول:

بعد أن أسهب الجد في وصف جاره مسعود ووصفه بالرجل الخامل لأنه فرط في أرضه ونخله وتمره وهو لا يحب الرجل الخامل كحد قوله استمع له الغلام (الراوي) جيدا ثم أطرق يقول بعد تفكير سريع؛ (لست أبالي من يملك هذا النخل ولا ذلك الشجر ولا هذه الأرض المتشققة. كل ما أعرفه أنها مسرح أحلامي ومرتع ساعات فراغي، بدأ جدي يواصل الحديث: نعم يا بني كانت كلها قبل أربعين سنة ملكا لمسعود، ثلثاها الآن لي)[2].

---

(١) د. إدريس الناقوري، مقالات نقدية في الرواية العربية، ص ٥١-٥٢.

(٢) دومة ود حامد: (حفنة من تمر) ص ٢٢.

الحديث عن خمول مسعود ليس هو الأساس لكن من يفرط في أرضه في تلك البقاع كمن يفرط في عرضه ووطنه، كيف لا وهي الوطن الصغير الذي يسكن الأعماق ويستوطن الذات قبل كل شيء، إيحاءات النخل والتمر وتفريط البائع (مسعود) ليست إلا قيمة تكشفها مسارات القصة بعد ذلك فالعنوان وحفنة التمر وهذا المشهد كلها عناصر متكاملة توحي بأن الوطن لا يباع. وهنا يظهر التشخيص والرمز جليا من خلال اختيار العنوان الذي حمل كثيرا من المعاني المكثفة في كلمات قليلة "حفنة من تمر" (إن العنوان في الحقيقة "مرآة مصغرة لكل ذلك النسيج النصي)[١].

مشهد ثان:

المشهد القادم هو موقف يعد وسطا وفارقا في القصة بين سماع أولها وهي تبديد الجار مسعود لأمواله وضياع أرضه وبين اكتشاف المفاجأة التي غيرت مسار الأحداث وحولت نظرة الصبي لجده الذي أصر على أخذ التمر مقابلا للديون ، وكان ذلك عند حصاد التمر: (لكنني لسبب ما أخذت أراقب مسعودا . كان واقفا بعيدا عن ذلك الحشد كأن الأمر لا يعنيه، مع أن النخل الذي يحصد كان نخله هو، وأحيانا يلفت نظره صوت (سبيطة) ضخمة من التمر وهي تهوى من علٍ، ومرة صاح بالصبي الذي استوى فوق قمة النخلة وأخذ يقطع السبيط بمنجله الطويل الحاد:"حاذر لا تقطع قلب النخلة " ... أنا أخذت أفكر في قول مسعود: " قلب النخلة " وتصورت النخلة شيئا يحس له قلب ينبض، وتذكرت قول مسعود لي مرة حين رآني أعبث بجريد نخلة صغيرة " النخل يا بني كالآدميين ، يبفرح ويتألم ")[٢]، أراد الراوي أن يبين مدى ارتباط مسعود بنخله وتمره وفي ذات الوقت تظاهره بعدم الاهتمام بأمر الحصاد

---

(١) د. شعيب حليفي، (النص الموازي للرواية:إستراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، العدد ٤٦، السنة،١٩٩٢، ص٨٤-٨٥.

(٢) دومة ود حامد، حفنة من تمر، ص ٢٤.

في إشارة إلى معرفته بأن ثمن التمر سيذهب للدائنين، مما يؤكد جليا مكانة التمر رغم أنه من السفهاء الذين فرطوا في الأرض والمال من أجل النساء. تؤكد فرضية قوة ارتباط العنوان "حفنة التمر" ومشاعر مسعود المختلطة بين إحساسه العميق بالنخل الذي شخصه وخلع عليه الإحساس بالفرح والحزن كأنه آدمي له قلب، وبين ضياع أرضه وعدم مقدرته على الحفاظ عليها رغم ذلك الارتباط العميق والإحساس الغزير المتدفق والذي خرج تلقائيا عندما صاح بالصبي "حاذر لا تقطع قلب النخلة"، هذا المشهد العاطفي التراجيدي هو قلب القصة وهو المنطلق منذ بدايتها إلى النهاية والتي لعبت فيها "حفنة التمر" مشهد البطولة، فالعنوان هنا رمزي يوحي بالقيمة الإنسانية والإحساس بالآخر، وهو نفسه إحساس الراوي بالقيمة الوطنية لكل ما ينتمي للأرض وكل يتعلق بالإرث والوجود الكائن في تلك المنطقة القروية والتي لا يجد الإنسان قيمته إلا بما يملك من إرث أجداده والحفاظ عليه، فالحفاظ عليه يمثل القيمة الحقيقية لإنسان المنطقة وسر وجوده (ومن هنا فالعنوان عبارة عن صيغة مطلقة للرواية وكليتها الفنية والمجازية، إنه لا يتم إلا بجمع الصور المشتتة وتجميعها من جديد في بؤرة لموضوعات عامة تصف العمل الأدبي، وتسمه بالتواتر والتكرار والتوارد، إذاً فهو الكلية الدلالية أو الصورة الأساسية أو الصورة المتكاملة التي يستحضرها المتلقي أثناء التلذذ والتفاعل مع جمالية النص الروائي)[1].

مشهد أخير:

المشهد الأخير هو خلاصة القيمة الإنسانية التي أرادها الراوي للقصة، فبعد أن تقاسم الدائنين أكياس التمر كانت الصدمة بالنسبة للصبي إذ وجد جاره مسعودا خالي الوفاض من حصاد ينتظره الملاك من عام إلى عام فثمة شعوران ينتابان الصبي في

(١) جميل حمداوي، مقاربة العنوان في النص الأدبي، مجلة الكلمة (مجلة إلكترونية)، العدد ٢ فبراير، ٢٠٠٧ ، دراسات جميل حمداوي.

تلك اللحظة ما بين المحبة لجده وبين تعاطفه مع جاره مسعود (أعطاني جدي قبضة من التمر فأخذت أمضغه، ورأيت مسعودا يملأ راحته من التمر ويقربه من أنفه ويشمه طويلا ثم يعيده إلى مكانه ... جدي أخذ خمسة أكياس ولم أفهم شيئا ونظرت إلى مسعود فرأيته زائغ العينين تجري عيناه شمالا ويمينا كأنهما فأران صغيران تاها عن جحرهما، وقال جدي لمسعود: ما زلت مدينا لي بخمسين جنيها ... شعرت بنفسي أقترب من مسعود وشعرت بيدي تقترب إليه كأني أردت أن ألمس طرف ثوبه وسمعته يحدث صوتا في حلقه مثل شخير الحمل حين يذبح ولست أدري السبب ولكني أحسست بألم حاد في صدري وعدوت مبتعدا وشعرت كأنني أكره جدي في تلك اللحظة ... وأسرعت العدو كأني أحمل في صدري سرا أودّ التخلص منه ... وصلت إلى حافة النهر قريبا من منحناه وراء غابة الطلح. ولست أعرف السبب ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي وتقيأت التمر الذي أكلت)[1]، كيف يمكن للصبي ابتلاع حفنة التمر وهو قد علم أنها انتزعت من صاحبها رغما عنه وإن كان مسعودا قد خان إرثه وفرط في حقه بسبب الدين فقد خان الجد عشرة السنوات وحق الجيرة لأنه قبل على نفسه أن يأخذ أكياس التمر بدلا عن الدين و الذي هو روح الأرض وانتظار الفرج وحصاد العام، أحس الصبي باستغلال الدائنين ومن بينهم الجد وعدم تقديرهم لما تعنيه الثمار وما يعنيه جنين الأرض بالنسبة لمسعود الرجل الذي وصف بالخمول والتفريط من أجل النساء. أبت حفنة التمر أن تنزل من حلق الصبي العاشق للأرض والذي تربى على حبها وعشق إنتاجها وعرف أن قيمتها من قيمة إنسانها وقيمة إنسانها هي من تحدده وتمنح لوجوده فيها قيمة ومعنى. كان العنوان " حفنة تمر" هو الخلاصة وهو القيمة وهو الإنسانية التي تفجرت من صبي عرف كيف تستلب الأوطان وعرف كيف تكون للإنسان قيمة وبفقده لأرضه يفقد قيمته ووجوده وحياته

(١) دومة ود حامد، حفنة من تمر، ص ٢٥-٢٦.

ويصبح فريسة للدائنين المستغلين. فالعنوان هنا عند الطيب صالح " حفنة التمر" يعني سكان المنطقة من البشر و اعتمادهم في معيشتهم على التمر فهو الحياة والوطن والوجود؛ لكنه أيضا امتداد للوطن الشاسع كمكان وقيامه بدور المركز في الحركة القصصية وتحديد مصائر من يسكنه ومن يحافظ عليه ومن يفرط فيه وجعله يقوم بدور البطولة الفعلية في القصة، ويفرض نفسه على عنوانها ويبلور رؤية المؤلف لذلك العالم (إن فهم الصورة العنوانية وتفسيرها وتذوق جمالها وصيغ أساليبها مرتبط بمعانيها" ضمن" خطاطة المجموع"، أي السياق الكلي للرواية)[1].

(١) د. محمد أنقار، مقالات نقدية في الرواية العربية، ص٣٥.

المبحث الثالث:

قصة "دومة ود حامد":

الدومة (شجرة الدوم) وهي أيضا من الأشجار المعروفة في شمال السودان بما ينبئ أيضا أن هذا العنوان إشارة لموطن الأديب الذي سيطر على معظم قصصه وأسبغ عليها من عبق المكان معالمها الواضحة، والعنوان مع فصاحة لغة القصة به لمحة من العامية ، فقد ذكر جملة " ود حامد" كما ينطقها أهل بلاده " بحذف اللام عن كلمة ولد" وذلك تأكيدا لارتباطه العميق بأهلها وصولا لفن التعبير الإنساني الصادق في هذه العامية المبسطة، السياق الحواري للقصة دار حول تلك (الدومة) مع شاب مقبل على مغادرة المكان المسمى (دومة ود حامد) والشيخ الكبير الذي هو بمثابة راوٍ يسرد تفاصيل المكان بشخوصه وحوادثه ذلك المكان الحاضر في نفوس ساكنيه بالإجماع ، فالشاب المقبل على الحياة يريد مغادرة المكان (الدومة)" ضريح الرجل الراحل" الذي يراه أهله ملء الأرض والسماء والذي لا يمتلكون غيره ليراه الزائرون وسواح المنطقة ممن تلقي بهم رواحلهم لتلك المنطقة، وقد أسموه (دومة ود حامد) ذلك الرجل الصالح المدفون تحت هذه الدومة والتي يؤمن أهلها به وبكراماته كامل الإيمان هم يعرفون جيدا منطقتهم ذات الذباب والناموس لكن جلودهم ثخينة ليست كجلود سائر الناس، ولقد اعتادوا تلك الحياة الخشنة كما ذكر الراوي فقد حكى للشاب كيف أن الحكومة قد حاولت يوما قطع الدومة وكيف وقف أهل القرية في وجهها لمنع أي مشروع زراعي يضر بالدومة، ذكر الأديب الطيب صالح في سرده للقصة كثيرا من التفاصيل لبلدته الصغيرة كما تحدث عن علاقتها بالعرب والغرب وأما اختياره للعنوان (دومة ود حامد) فله دلالات كثيرة لرمزية المكان وقوة الانتماء وقد أكد ذلك من خلال تحاور الشيخ مع الشاب بوصفه رمزا لتلاقي الأجيال، جيل الحضارة الذي لا يعرف عن الدومة ولا يؤمن بالمعتقدات وجيل الرجل العجوز الذي يؤمن

بالكرامات ولا يجد النقاش في ذلك الأمر إلى نفسه سبيلا للإقناع بغير ما آمن به، إذن فالعنوان هنا ليس مجرد رمز لما يدور داخل النص لكنه النص المشتمل بذاته من خلال فلسفة أرادها الكاتب لارتباط الأجيال به وعكس نظرة كل واحد منهم له (لقد أدرك الأعرابي – بفطرته وتجربته – أن للمكان سطوة على مستقبل ابنه، وأنه في إمكان الابن أن يختار مقدار هذه السطوة وطبيعتها، وأن يوجهها اختيارا إلى الوجهة التي يريد. فإن ضيّق، ترتبت على الضيق عواقب شتى معقدة، تمتد في جميع الاتجاهات الاجتماعية. وإن وسّع كان الأمر كذلك. ويسهل علينا تصور عواقب الضيق، وعواقب السعة. ألا يقول المثل الدارج: "الضيق يعلِّم البخل"؟ إنها الحقيقة النابعة من صميم المعايشة الاجتماعية. مادام المسكن الضيق لا يسمح لصاحبه استدعاء أحبائه. فإذا هو عزم على الأمر، بادره الضيق بالرد والصد، وضاق بهم ذرعا قبل قدومهم عليه. ولو أجرينا دراسة في "تقاطع الأرحام" لوجدنا للضيق المكاني ضلع بالغ فيه، قبل أن يكون لضيق اليد بادرة. وأن إنجاز السكن على النحو الذي نرى يعمل على تبديد أواصر المجتمع، وقتل العلاقات الأسرية، وقطع التواصل الرحمي، وتحويل المجمعات السكنية إلى "شقق" يأوي إليها أفراد لا رابط يربطهم بماض أو نسل. همهم الأول أن لا يزعجهم أحد في فسحتهم تلك، وأن لا يزعجوا بدورهم أحدا في فسحته الخاصة. حتى صار المكان أشبه شيء بكرة زجاجية مخبرية تنعزل فيها الجرثومة الخطرة على ذاتها قبل أن تكون خطورتها على غيرها)[1]. فالعلاقة بين الشاب والشيخ هي قضية الانتماء للوطن الصغير والكبير وهي من القضايا البارزة في السودان، نقلها الطيب صالح برؤيته الخاصة مع إمكانية التوازن بين جيلين مختلفين و عكس رؤيتهما المستقبلية للمكان والوطن. إذن فالوطن حاضر

(١) مونسي، حبيب، فلسفة المكان في الشعر العربي، (قراءة موضوعاتية جمالية)، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١، ص ١٨-١٩.

بقوة في ذلك العنوان الرمزي "دومة ود حامد" والمتأمل له يشم عبق الأمكنة وتضاريسها ممتزجة بذلك الوجود الداخلي في نفوس ساكنيها ومعتقداتهم الراسخة بتلك القيم التي تمثل بكل إيجابياتها وسلبياتها، الوطن الأم والإيمان الذي يرسم الحوار بين الشيخ والصبي إلى آخر كلمة في القصة.

مشهد أول:

بعد أن أطال الشيخ في وصفه للشاب السائح عن وعورة المكان وصعوبة الحياة فيها بما فيها من ذباب و" نمتة "[١]، وكيف أن الشاب لا يستطيع ولا يتحمل ركوب الحمار لأنه اعتاد على السيارات الفارهة والحياة الرغدة الميسرة، بدأ الشيخ في وصف شيء ألصق بالنفوس وأعلق بالقلوب من كل ذلك وهو قدسية المكان الوطن عندهم ونظرتهم له قائلا: (سترحل في غدٍ يا بني- إني أعلم ذلك ولكن قبل أن ترحل دعني أريك شيئا واحدا – قل إننا نعتز به، عندكم في المدن المتاحف أماكن تحفظ تاريخ القطر والأمجاد السالفة. هذا الشيئ الذي أحب أن أريكه قل إنه متحف، شيئ واحد نصر أن يراه زوارنا)[٢]، والشيخ يقصد هنا " دومة ود حامد " لأنه استطرد في حكي القصة من أولها وكيف أن واعظا أرسلته الحكومة ليقيم بينهم شهرا ولربما أتى لتثنية أهل المنطقة عن تقديس الدومة وهدم تلك المعتقدات الرجعية، ولكن ماذا أصاب الواعظ ؟ أصيب بالملاريا ومرض مرضا شديدا فذهب الشيخ لزيارته ووجده وقد اشتد عليه المرض فقال له: (يا شيخ ليس في بلدنا شيئا نريكه، ولكني أحب أن ترى " دومة ود حامد" ولم يسألني ما دومة ود حامد- وإن كنت أرجح أنه سمع بأمرها، فمن ذا الذي لم يسمع بها ؟)[٣]، حضر العنوان في هذا المشهد بقوة وفسر

---

(١) "النمتة" حشرة صغيرة تشبه البعوض.

(٢) دومة ود حامد، ص ٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

نفسه بنفسه، الدومة هنا تعني الكثير فهي بالنسبة للشيخ بمثابة الوطن الشاسع وحلم الشباب الواعد رغم اختلاف الرؤى فهي مقابلة للحياة الرغدة التي يتطلع أن يعود إليها الشاب الزائر هنالك، حتى أنه يستبعد ويستنكر أن من أحد لم يسمع بها، هنالك تقف الدومة شامخة في حكايا وقصص الشيخ، وما الشيخ هنا إلا ذلك الصوت المؤمن بأن الوطن الصغير والقرية التي يعيش بها لابديل لها في أي مكان بقدسيتها وبإيمانهم بها وهي الوطن الذي يحتفلون به في حكاياهم وفي قصصهم وكل ما يحلم به الشاب لا يساوي شيئا أمام ذلك الوجود الطاغي " للدومة " إنها الأوطان التي لا تقبل المقارنة ولا المساومة بكل سلبياتها وإيجابياتها. ليس غريبا أن يكون العنوان هنا تشخيصا للذات وتفسيرا لمحتواها (ويلاحظ مع مرحلة الانفتاح على الغرب وتجنيس الفن الروائي العربي اعتمادا على المعايير الفنية للرواية الغربية أن الرواية الحديثة في العالم العربي منذ ظهور زينب لمحمد حسين هيكل (١٩١٢) أو الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران اعتمدت نمطيا العنونة الكلاسيكية أو التقليدية التي كانت مرآة تشخيصية للذات أو الواقع أو المرجع التاريخي)[١].

مشهد ثانٍ:

المشهد القادم هو مشهد عاطفي بين المحب "الشيخ الراوي" وبين المكان" دومة ود حامد "فما أن بدأ في وصفها حتى بدا لنا وكأنه يتحدث عن محبوبة فائقة الجمال: (ها قد وصلنا ... تصبّر يا بني – ماهي إلا ساعة وتهب نسمة العصر فتخفف من تكالب هذه الآفة في وجهك، ها هي ذي ... دومة ود حامد انظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض ، انظر إلى جزعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عرف المهر الجامحة. حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل

(١) مقاربة العنوان في النص الأدبي، مرجع سابق.

الدومة ظلها في هذه الربوة العالية فيستظل بها الجالس على الضفة الأخرى ... ثم يسأل الشاب: أتراها عقابا خرافيا باسطا جناحيه على البلد بكل ما فيها؟)[١]، هذا الحديث هو حديث المحب الذي لا يقبل حتى التلميح بأن ما يؤمن به هو خرافة من خرافات الزمن الغابر، هو الإيمان الذي لا يشوبه شك ولاريب ، بكل الحب قالها الشيخ المحب، ذلك الوطن الذي يرمي بظلاله حتى للضفة الأخرى، هذه الرموز التي أرادها الشيخ ولمح لها هي بالفعل ما أراده الأديب، فكيف للشاب أن يقنع الشيخ بعكس ما يري وكيف للشيخ أن يثبت للشاب أن ما يحسه لن تغيره الحضارات ولن تزحزحه السنون ، إن تلاقي الأجيال واختلاف الثقافات هنا لا يغير من مكانة الوطن الصغير ولا يبدل قناعات الزائر فتبقى القناعات راسخة إلى يومنا هذا وأرضا خصبة للدراسة والكتابة. فالعنوان هنا هو نموذج للعنونة الفضائية التي تشخص المكان وتجسد الواقع الموضوعي والفضاء بكل عوالمه الأصيلة والموبوءة. (فقد ساد الإحساس بالغربة عن الذات والمكان، وهو يؤكد أن احتشاد الانكسار الفادح الذي كان يتخفى تحت إهاب الكلمات عكسته العناوين، فجاءت على وتيرة واحدة لتخلق مستويات متعددة المعاني تفيض بآلام الذات العربية التي اختارت هذا المجال وسيلة للتعبير عن الأسى والرعب الذي استجمع قواه لرؤية انهيار العديد من القيم في حين أن العنوان في الخطاب الروائي الحديث يشكل استراتيجية خاصة لها خصوصيات ومكونات تدخل في إطار التجريب انطلاقا من استفادتها من الركام الكلاسيكي من جهة، ثم الوعي بأهمية العنوان وتغيراته من جهة ثانية)[٢].

---

(١) دومة ود حامد، ص ٣٦- ٣٧.

(٢) شعيب حليفي، (النص الموازي للرواية-إستراتيجية العنوان)، الكرمل، ص ٨٨.

مشهد أخير:

هذا المشهد سبقته حكايا كثيرة عن كرامات الرجل الصالح المدفون تحت الدومة، وكيف يراه الناس في أحلامهم وكيف لحقتهم كراماته وأخرجتهم من الكثير من المشكلات، وهو أيضا مشهد يلخص كثيرا من القصص التي ذكرها الشيخ عن المشروعات التي أرادت الحكومة إنشاءها (مكنة الماء ومحطة الباخرة) وحالت الدومة دون ذلك لوجودها في موقع استراتيجي لهذه المشروعات، سرد الشيخ كثيرا من القصص والتي أبدى فيها أهل المنطقة رفضهم القاطع لقطع "الدومة" وإزالة الضريح الذي يرقد تحتها، المشهد القادم هو خلاصة ما تعنيه "الدومة" وهل يمكن أن تتغير مفاهيم أهلها يوما ما! والمشهد حوار بين الفتى الذي سيغادر الدومة قريبا والشيخ، وهو حوار مثل أحد أبعاد الرؤية السردية وكشف عن قدرة بارعة للأديب على التكثيف والاختزال واللذان يميزانه كثيرا في كتابة القصص: (ولما فرغ الرجل من كلامه، نظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة غامضة ترفرف على جانبي فمه كضوء المصباح الخافت فقلت له: "ومتى يقيمون طلمبة الماء والمشروع الزراعي ومحطة الباخرة ؟" " فأطرق برهة ثم أجابني:"حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم " فقلت له: "ومتى يكون هذا؟" فقال: "ذكرت لك أن ابني في البندر يدرس في مدرسة. لم ألحقه بها ولكنه هرب. سعى إليها بنفسه. حين يتخرج ابن ابني من المدرسة ويكثر بيننا الصبيان الغرباء الروح فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي ... لعل الباخرة تقف عندنا ... نحن دومة ود حامد " فقلت له: "وهل تظن أن الدومة ستقطع يوما ؟ فنظر إلي مليا وكأنه يريد أن ينقل إليّ خلال عينيه المتعبتين الباهتتين ما لا تقوى على نقله الكلمات: "لا لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة ، ليس ثمة داع لإزالة الضريح ، الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعا أن

المكان يسع لكل هذه الأشياء – يسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة")[١]، الحوار الذي دار هذا هو ما أراد الطيب صالح أن يلخص به القصة ، فصورة الشيخ الوقور صاحب الوجه الصبوح هنا ما هو إلا صورة رمزية للروح التي تسكن الدومة ، والتي يعتقدون فيها وفي كراماتها هذا الإيمان الذي لا يزحزحه بريق التطور ولا تمحوه السنون، فهو وإن غادر وطنه السودان فإنه المعتقدات والأشخاص تلاحقه ولذلك نجده يتمادى في السرد الأوتوبايوغرافي مؤرخا لحياة هؤلاء الأشخاص بمعتقداتهم المختلفة والتي تكون واقعهم المعيشي الحسي في هذا الوطن الذي طال الزمن أم قصر ومهما تكالبت عليه المغريات سيظل فيه مكانا للإرث والمعتقد ورغم وما ناله أبناء الوطن من تعليم ومهما رسخ في أذهانهم من قيم تنفي تلك المعتقدات ستظل إرثا غاليا ووطنا شاسعا يسع الجميع ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وجاهلهم . وفي عنوان القصة "دومة ود حامد " حاول الطيب صالح أن يوفق فيه بين الذات والهوية وبين القيم الروحية والإسلامية وصراع الأجيال لأن الرواية الحديثة بعنونتها حاولت طمس الهوية العربية الحقيقية وهذا أبعدها كثيرا عن مجاراة الواقع والحقيقة إذ تعد (الأشكال السردية الحكائية القديمة أنماطا روائية تراثية (ألف ليلة وليلة مثلا) بمقياسنا العربي الأصيل، لا بمفاهيم الرواية الأوربية الحديثة(رواية القرن التاسع عشر) التي أوقعتنا في التقليد والانبهار والتلفيقية والتجريب رغبة في العولمة والحداثة؛ وإن كان ذلك على حساب الأصالة والتراث والذات والهوية والفهم الحقيقي للشخصية العربية والتواصل الحضاري وربط الماضي بالحاضر. فهذه الأمور هي الكفيلة بتحقيق قفزة حضارية: قوامها التوازن بين الماديات والأخلاقيات الإسلامية)[٢].

---

(١) دومة ود حامد، ص ٥٢-٥٣.

(٢) مقاربة العنوان في النص الأدبي، مرجع سابق.

خاتمــة

بعد الحمد والثناء على إكمال قراءتي للقصة ، لفت نظري كثير من إبداعات الأديب التي اكتنزت داخل النصوص وعبر عنها بالعناوين البارزة في مقدمتها ، والتي لخصتها في عدة نقاط:

- تزدحم القصص الثلاث بخيال ووصف متعدد الاتجاهات وقدرة فائقة تتعلق بتركيبة المكان ومردوده النفسي على الشخصية والقارئ في آن واحد.
- كان الوطن حاضرا في كل العناوين وقد حاول الأديب تأصيلها بعدة مقارنات بين الحاضر والماضي والمستقبل وبين الحديث والقديم والحضارة والتقليد.
- وعي الأديب بإنسان الوطن بكل تفاصيله وبسيكلوجية الشخوص المحكي عنهم وظهر ذلك في تقنية الحوار البارعة والقدرة على الاختزال والتكثيف.
- ارتاد الأديب من خلال قصصه وعناوينها مناطق جديدة ولامس دواخلها من خلال إنسانها بزخم من العواطف الإنسانية العالية.
- قدم لنا الأديب عناوين قادرة أن تتجاوز من خلالها مفردات متنوعة تصنع لنا رؤية خلاقة وفق اشتراطات الكتابة الجمالية وتعدد زوايا النظر إليها من خلال العوالم والناس في آن واحد.
- القدرة الفائقة على أنسنة وتشخيص الجمادات وإضفاء روح الحياة فيها وجعل العناوين ناطقة بروح الانتماء وأصالة الأمكنة والأشياء.
- استطاع في كثير من العبارات النفاذ إلى سيكولوجية المتلقي وجعله يوقن بأنه أمام قيم لا تقبل النقاش ولا تحتمل التغيير مهما تقادم عليها الزمن.
- اعتمد الأديب في اختيار عناوينه العنونة الفضائية التي تشخص المكان وتجسد الواقع الموضوعي والفضاء بكل عوالمه الأصيلة والموبوءة.

- رغم تنوع وتشكل العناوين في القصص الثلاث إلا أن بينها علاقة حميمة في الأماكن ورسم الشخصيات وتشير جميعها إلى الموطن الأصلي للكاتب.
- وجود رابط قوي بين عناصر السرد ابتداء بالعنوان وانتهاء بالعناصر المكملة له من شخصيات وحوار وزمان ومكان.

قائمة المراجع

١-علي جعفر العلاق، (شعرية الرواية)، علامات في النقد، المجلد ٦، الجزء٢٣، السنة ١٩٩٧.

٢-لوسيان ؟ ولدمان وآخرون، الرواية والواقع، ترجمة: رشيد بنحدو، عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨.

٣-سيزا قاسم، جماليات المكان، منشورات عيون المقالات، المغرب.

٤-سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٥-مدفن، أم كلثوم، دلالة المكان في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة الأثر، مجلة الآداب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد الرابع، مايو ٢٠٠٥.

٦-جميل حمداوي، مقاربة العنوان في النص الأدبي، مجلة الكلمة (مجلة إلكترونية)، العدد ٢ فبراير، ٢٠٠٧ .

٧-الطيب صالح، (دومة ود حامد) " سبع قصص"، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

٨-موسى اغربي، مقالات نقدية في الرواية العربية، دار النشر الجسور، وجدة، ط ١، ١٩٩٧.

٩-كلود دوشيه، (عناصر علم العنونة الروائي)، أدب، فرنسا، عدد١٢، كانون الأول، ١٩٧٣.

١٠-د. شعيب حليفي، (النص الموازي للرواية: إستراتيجية العنوان)، مجلة الكرمل، العدد ٤٦، السنة،١٩٩٢.

١١-دليله مرسلي وأخريات، مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص، دار الحداثة ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥.

١٢-د. إدريس الناقوري، مقالات نقدية في الرواية العربية.

١٣-جميل حمداوي، مقاربة العنوان في النص الأدبي، مجلة الكلمة (مجلة إلكترونية)، العدد ٢ فبراير، ٢٠٠٧ .

١٤-د. محمد أنقار، مقالات نقدية في الرواية العربية.

١٥-مونسي، حبيب، فلسفة المكان في الشعر العربي، (قراءة موضوعاتية جمالية)، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١.